

الحضارة وقضية التقدم والتخلف

فيشبه اللفظة وهي تؤدي معناها داخل عبارة تضمها مع غيرها ، بلوح من الخشب الرقيق ، وضع على خندق ليحبر عليه العابرون ، فلا بأس هناك اذا جرى عليه العابر خفيفا سريعا ، اما اذا وقف العابر عليه ليختبر قوته ، وراح يقفز بكل ثقله فان اللوح الخشبي لا يلبث ان ينكسر تحت قدميه .

لكننا برغم هذا النصح من بول فاليري ، لن نمر على كلمة « حضارة » خافا سريعا ، وسنقفز عليها ونقفز ، حتى نتوشم لنرى اجزاها جليلة امام ابصارنا .

نريد تعريفا للحضارة ، يحدد لنا الخصيصة الواحدة ، او مجموعة الخصائص التي لا بد من ظهورها في كل حالة حضارية ، كما لا بد من اختفائها في كل حالة بدائية ، لانه اذا كانت الصفة او الصفات التي نقع عليها ، ماثلة في المتحضر وغير المتحضر على سواء ، اذن فهي ليست من التعريف الذي ننشده ، فمثلا اذا عن لنا ان نذكر الفن او الادب - ليكون تعريفا للحضارة ، وقفنا في الخطأ الذي احذر منه ، لانه ما دام الفن والادب - كائنا ما كان نوعها - موجودين في كل جماعة بشرية ، ايا ما كان حظها من الحضارة ، اذن فهما عنصران ضروريان ، لكنهما وحدهما لا يكفيان للتعريف . فالشرط الاساسي الذي لا بد من توافره في اي تعريف كامل ، هو ان نذكر الصفات الضرورية والكافية معا . فالبصر ضروري للانسان ، ولكنه لا يكفي لتعريفه ، واذن فلا يجوز ان نعرف الانسان بانه الكائن البصر ، وهكذا الحضارة لا يجوز تعريفها بانها الحياة التي تحتوي على فن وادب ، برغم ان الفن والادب عنصران ضروريان لا تخلو منهما حضارة .

فما هي الصفة - اذن - التي تجمع الى كونها ضرورية للحضارة ان تكون كذلك كافية لتعريفها ؟ وهي انما تكون كافية اذا امتنع ظهورها من كل حياة اخرى ، مما يتفق الناس على انها ليست في عداد الحضارات .

ولقد قلت : « مما يتفق عليه الناس » عن وعي وعمد ، لانه لا سبيل امامنا في تعريف الحضارة ، الا ان نبدأ بامثلة من عصور ، اجمع العرف على انها فترات ذات حضارة رفيعة ، لكي نستخلص من هذه الامثلة الواقعية التي شهدتها التاريخ والتي اقرها الخبراء في ميادين الثقافة ، صفاتها المشتركة التي تظهر فيها جميعا ثم نستوثق من انها صفة لا تظهر في غيرها . وسوف اغض النظر هنا عن سؤال يثريه الباحثون ، وهو : هل الحضارة صفة تصف عصورا وجماعات ؟ او هي صفة تصف الافراد اولا ، ومن مجموعة الافراد المتحضرين تتكون حضارة معينة في عصر معين ؟ ساغض النظر عن هذا السؤال ، لسبب بسيط ، هو ان خبراء الرأي اقرب الى الاتفاق عندما ينصب الحكم على جماعة بأسرها ، او على عصر بأكمله ، منهم الى الاتفاق عندما ينصب الحكم على هذا الفرد او ذلك .

فاي الجماعات ، او اي العصور يمكن اجماع الرأي عليها بانها نماذج للحياة المتحضرة حضارة رفيعة ؟ نستطيع الاكتفاء باربعة امثلة لا اظن احدا يجادل في رفعة حضارتها ، وهي : اثينا في عهد بركليز ، في القرن الخامس قبل الميلاد ، بغداد في عهد المأمون في القرن التاسع ، فلورنسة في القرن الخامس عشر ، باريس في عصر التنوير ابان القرن الثامن عشر .

فما هو القاسم المشترك بين هذه الحضارات الاربعة ؟ انه يقينا ليس الاجهزة الآلية ، لان هذه الحضارات جميعا قد خلت منها ، اذ ان

لطالما تعرض هذا المائل بين ايديكم لهجمات الناقدين ، طوال الخمسة والعشرين عاما الماضية : لماذا ؟ لانه ما فتيء خلال تلك الفترة ينادي بكل ما في ارادته من اصرار ، وبكل ما لقلمه من صرير ، ما فتيء ينادي بان نلجم شهوة الحديث فينا بشكائم الدفة والتحديد ، لعله يتاح للمتلحم والسامع ، او للكاتب والقارئ ، ان ينتهي بهما الحديث او الكتابة الى اتفاق على رأي واحد ، فيسلكونه في تيار الحياة الجارية عملا وسلوكا . ذلك لانه مما يلاحظ حتى للعين العابرة ، ان احاديثنا وكتاباتنا كثيرا ما تنحيط في ابحر من ظلمات اعصاني القامضة ، كائنا جماعة من الصم ، يتحدث بعضنا الى بعض دون ان يستمع احد الى احد .

نعم ، ما فتيء هذا المائل بين ايديكم طوال هذه الاعوام يتعرض لهجمات الناقدين ، لانه رفع الصوت ، وما يزال يرفعه في عصبية المخلص لدعوته ، بان نراعي - عند الحديث او الكتابة - دقة التحديد في ضبط المعاني التي نجرها على الالسنة والاقلام ، ما دام الموضوع المطروح يتسم بجديدة العلم ، ويمس حياتنا في اسسها واركائها . اذن فقيم كانت هجمات النقد اذا كان هذا هو هدف الدعوة ولها ؟ والجواب هو ان علتها نكمن في رغبتنا الجامعة نحو ان تنساب من افواهانا واقلامنا خيوط اللفظ ، لا تكاد نطلب منها الا حلالة جرسها في الاسماع . اما من اراد ان يقف بنا عند هذه اللفظة ، او عند تلك العبارة ، سائلا ومدققا في المعنى المقصود ، فجزاؤه عندنا هو الاهمال ، وانه لمجدود لو اكتفى منا باهماله ، دون ان تكيل له مع الاهمال صاعا من الشستائم او صاعين .

فإذا كانت الدعوة الى الدقة في تحديد المعاني هي اهم الهموم التي حملها هذا المائل بين ايديكم طوال ربع قرن مضى ، افلا يكون من اوجب واجباته على نفسه ان يتوخى هو مثل هذه الدقة التي يدعو الناس اليها ؟ وموضوع حديثنا هذا هو عن « الحضارة » لنرى بعد ذلك موقفنا من حضارة عصرنا ، اين يكون على درجات السلم ، صعودا او هبوطا ، فحتم علينا - اذن - ان نحدد معنى الحضارة بصفة عامة وشاملة لئلا نستطيع بعدئذ ان نصيق دائرة الحديث لتتخصر في حضارة العصر وما يميزها دون سائر الحضارات التي شهدتها العصور السالفة . فاذا استطنا ذلك في دقة ووضوح ، كان الحكم على موقف الامة العربية في مرحلتها الراهنة امرا مسرا لا عسر فيه .

ولكننا ما ان نهم بمثل هذا التحديد لمعنى « الحضارة » حتى نقوص في بحر متلاطم الموج ، لكثرة ما يعترضنا من آراء تخلف الى حد التناقض بين رأي ورأي . ذلك فضلا عما في تحديد امثال هذه المعاني العامة من صعوبة شديدة حتى ولو لم يكن اختلاف الرأي فيها بعيد المدى . فقد تكون الكلمة واضحة حين تجري في سياقها ، لكنك اذا عزلتها وحدها ، ووضعيتها في مختار التحليل والفحص الفيتها تقاوم وتروغ حتى ليستعصي عليك ان تمسك باطرافها ، فكائنا اللفظة من هذه الالفاظ العامة كائن حي بالمعنى الحقيقي لهذه العبارة ، تنصاع لفهمك اذا جعلتها جزءا من عبارة ، لكن اجعلها وحيدة وحاول ان تمسكها من جناحيها ، تنمرد عليك وتنتقم . كانت وهي مسوقة في عبارة ، وسيلة تتعاون مع غيرها على أداء معنى ، اما وقد جعلتها غاية في ذاتها ، تريد اختيارها هي ، فما اسرع ان تنقلب بين يديك اقرا غامضا ، وان تتخذ لنفسها اعماقا وابعادا ، لم تكن تتوقعها لها في بداية الطريق . وهذا هو الشاعر الفرنسي بول فاليري يحدثنا في ذلك

ونظراً إلى أننا بركليز ، وبغداد المأمون ، وفلورنسه آل مديتشي وباريس فولتير ، فلا نخفي فيها جميعاً هذه الصفة البارزة ، وهي أن قبول الأشياء ورفضها لم يكن قائماً على عواطف الحب والكراهية ، والرؤى والسخط ولا كان قائماً على التقاليد الورثة قيماً أعمى ، بل كان القبول والرفض قائمين - على وجه التعميم الذي قد يشد هنا أو هناك - كانا قائمين على حكم العقل ومنطقه ، فكانما كان الناس يسألون عند كل وقفة يتفونها من موضوع مطروح : هل الخطوة العقلانية إذا خطوناها بلغتنا إلى الأهداف ؟

وان عقلانية كهذه في النظر إلى أمور الحياة والثقافة معا ، لتستتبع صفات فرعية كثيرة ، تنتج عنها كما تنتج الثمرات من شجراتها . ومن أول هذه النتائج النابعة من ذلك المبدأ العقلاني ، أن تتخذ الأشياء نسبتها الصحيحة بعضها من بعض ، فيبدو الكبير كبيراً كما هو ، والتافه تافهاً كما هو ، فقد تهتم الدولة الحضرة بمسألة علمية تريد لها أن تستقر في الناس ، ولكنها تقضي عن بواقة السلوك التي ربما اختارها هذا الرجل أو ذاك طريقة لحياته الخاصة ، مع أنك إذا نظرت إلى جماعة غاب عنها العقل واستبدت بها النزوة في أحكامها ، فقد تراها وهي تقيم الدنيا ثم لا تقدها ، تجاه سلوك خاص اصطنعه خالد أو زيد في حياته الخاصة ، بينما تعشي عينها عن رؤية تيار بأسره في دنيا العلوم أو الفنون .

ومن النتائج التي تترتب على الوفاة العاقلة كذلك ، إثبات الأجل على العاجل ، إذا كان في العاجل خير قليل قد يعقبه شر كثير ، أو كان في الأجل خير كثير قد يسبقه شيء من الم التضحية .

ومن أبرز جوانب النظرة العقلانية أن ترد الظواهر إلى أسبابها الطبيعية فلا يفسر المرض - مثلاً - إلا بالجراثيم التي أحدثته ، ولا يعزل سقوط المطر إلا بظروف المناخ ، وهكذا . ويتربط على هذا الربط السببي الصحيح ، أن نلتصق للأشياء أسبابها الطبيعية كذلك ، فإذا اردنا غللاً ، زرعنا لنحصدها ، وإذا اردنا قتلاً حملنا له السلاح بهمان واقتدار .

النظرة العقلانية تنظر إلى الواقع كما هو واقع ، لتحوه إلى واقع جديد إذا ارادت ، دون أن تقيم بينها وبين الواقع حالاً تنسجه الأوهام ثم سرعان ما تنسى أنه أوهام ، فإذا كان البدائي يخاف لنفسه الخرافة ليظهر بمنظرها إلى وقائع الدنيا ، فإن المتحضر هو الذي يواجه تلك الوقائع كما تبدو لبعصره وسمعه ، وبغير هذه الرؤية العارية المباشرة ، كان يتعذر عليه أن يلجم الطبيعة ليسير وقائنها حيث اراد لها أن تسير .

على أن أبرز ما تتميز به النظرة العقلية إلى الكون ، هو حب الإنسان للمعرفة حتى يلج بأسرار البيت الذي هو ساكنه ، فالعقلاني في نظره ذو نهم نحو معرفة الحقائق والطبائع والعلم ، لا يصده عن ذلك شيء من التحريم الذي يفرضه البدائيون على أنفسهم . من منا لا يذكر الحكايات التي كانت تحكي لنا ونحن صغار ، عن القصر ذي الغرف الكثيرة ، الذي يستباح الدخول في غرفه كلها إلا غرفة واحدة محرمة ؟ ذلك هو الإنسان إذا ترك لظفرته : ينتهب نزع الستائر عن حقائق الأشياء ، وحتى إذا اجاز لنفسه أن ينزع بعضها ، اوجب على نفسه أن يترك بعضها الآخر مسدداً على كوامنه ، إلا من جعل السيادة لعقله ، فذلك هو بروميشيوس - في أساطير اليونان - الذي نزع الشعلة من أيدي الآلهة ليضيء بها أركان الأرض فلا يترك منها ركناً خافياً في عممة الظلام - هكذا كانت أينا حين أمسكت بقميص النور لتتفحص الدنيا على ضيائه ، وهكذا كانت بغداد المأمون حين أخذت تعب معارف الأولين عما لم يكذب يفرق بين شراب وشراب ، فكل شراب من مورد العلم عندها سائق ، وهكذا كان عصر النهضة وعصر التنوير في أوروبا .

وانها لم يكن قد آن بعد ، مما يدل على أن الحضارة من حيث هي حضارة وكفى ، غير مقيدة بعصر معين ، تستطيع أن تقوم بغير الآلة كما تفهم في عصرنا ، كلا ولا كان القاسم المشترك بين الأمثلة الأربعة التي اخترناها نماذج للحضارة في اكتمالها ، هو الفن أو الأدب أو غيرها من وسائل الحياة الوجدانية ، لأن ما تجده من هذه العناصر في واحدة من تلك الحضارات قد لا تجده في الأخرى ، فضلاً عن أن هذه العناصر جميعاً قد تتوافر في شعوب وفي عصور لم تنفق على أنها موسومة بحضارة تذكر . ففي قلب الإدغال البدائية ربما رأيت من العقائد ومن الفنون نحننا وتصويراً وغناء ما يستحق التقدير في ذاته ، لكنه وحده لم يستطع أن يقيم حضارة يسجلها لها التاريخ ، لا ، ولا القاسم المشترك هو القدرة العسكرية ، والا وضعنا جنكيزخان وهولاكو في طليعة المتحضرين ، وعدنا قبائل التتار أكثر حضارة من الشعوب التي اجتاحتها تلك القبائل ، ولا النظم السياسية هي ذلك القاسم المشترك الذي نبحت عنه ، فقد كانت أينا بركليز أولجاريكية الحكم ، وكانت بغداد المأمون يحكمها خليفة ، وكانت السيطرة في فلورنسة لأسرة مديتشي ، وكانت تحكم باريس التنوير ملكية مطلقة .

ولكن القاسم المشترك الذي نراه في تلك النماذج الأربعة جميعاً ، كما نراه في كل نموذج حضاري نختره بعد ذلك ، ولا نراه في أي شعب أو عصر منوعت بالبدائية والتخلف ، هو الاحتكام إلى العقل في قبول ما يقبله الناس وفي رفض ما يرفضونه ، هذا الاحتكام إلى مقاييس العقل وحده قد يتبدى في صور تختلف باختلاف العصور . فربما ظهر في مجال السياسة ، أو في مجال الحرب ، أو في مجال التشريع ، أو في مجال العلوم الطبيعية . لكن هذه المجالات المختلفة ان هي إلا تطبيقات مختلفة لمبدأ واحد ، هو أن يكون الحكم للمنطق العقلي وحده دون سواه . فهذه العقلانية في وجهة النظر هي التي تراها ماثلة في كل حضارة مهما اختلف لونها ، ولا تراها في أي جماعة بدائية مهما تعددت بعد ذلك صفاتها ، وليس هذا الذي نسميه علماً ، إلا عقلانية اتخذت لها منحنى معيناً من مناحيها الكثيرة ، فربما اتجهت النظرة العقلية تلك ، نحو الأفكار المجردة تنظيماً وتنسيقاً في ترتيب هرمي يضع الأعم منها فوق الأخص ، كما حدث لليونان الأقدمين ، أو ربما اتجهت نحو تحليل ما نزل به الوحي من تشريع ، كما حدث للعرب الأولين ، أو اتجهت نحو ظواهر الطبيعة تستخرج قوانينها النظرية كما حدث لأوروبا في عصورها الحديثة ، أو اتجهت نحو تجسيد تلك القوانين العلمية النظرية في أجهزة يديرها الإنسان أو تدير نفسها بنفسها كما يحدث لعصرنا القائم .

- ٣ -

عند هذا المنحنى من سياق الحديث ، ينبغي الوقوف لحظة قصيرة نتساءل فيها عن المعنى المحدد الواضح لكلمة « عقل » ، ما دنا قد جعلنا الاحتكام إلى العقل أساساً تقام عليه الحضارات حيثما قامت ، وبقيابها تنعدم الحضارة كلما انعدمت . فما هو هذا الذي نسميه (عقلاً)؟ هو ببساطة شديدة ذلك النمط من أنماط السلوك ، الذي يتبدى عندما نحاول رسم الطريق المؤدية إلى هدف اردنا بلوغه . فليس الهدف المختار في ذاته « عقلاً » لأنه وليد الرغبة وحدها ، وليست النقطة التي أبدأ منها السير على الطريق « عقلاً » لأنها مبدأ مفروض ، أما « العقل » بمعناه الدقيق فهو - ببساطة شديدة كما قلت - رسم الخطوات الواصلة بين هذا المبدأ المفروض من جهة ، وذلك الهدف المطلوب من جهة أخرى ، فأفرض مثلاً أن أمة ارادت الحرية لابنائها ، إذن فهذه الحرية المنشودة هي الهدف المقصود ، والفاعلية العقلية في هذه الحالة هي في دقة التصور لما ينبغي أن يتخذ من وسائل لتحقيق ذلك الهدف ، وبمقدار ما يكون لتصور الوسيلة من دقة تمكن الناس من السير على هداها فلا ينحرف بهم الطريق ، يكون لدينا من قدرة عقلية في هذا المجال .

سلطان العقل - اذن - هو مدار القياس لدرجات الحضارة ، فقل لي كم عقلت امة في تدبيرها لامورها ، اقل لك كم صعدت في مدارج التحضر . واقول سلطان العقل ولا اقول مضاء الارادة ، فالاولوية في البناء الحضاري للعقل وفكره قبل ان تكون للارادة وفعلها ، نعم انه لا بد بعد التفكير العقلي من ارادة تنفذ ، لكنها عندئذ تكون ارادة ملجئة بتخطيط العقل . واما اذا بدأنا الشوط بارادة تفعل ، فمن ذا الذي يضمن لنا الا يجيء فعلها تخطا اهوج ، ينتج نحو اليسار اذا كان الاتجاه الى اليمين هو الموصل الى الهدف ، اد ينتج بنا نحو اليمين عندما تقتضي حكمة العقل ان نسير الى يسار ؟

العقل هو وحده الفاصل بين الحق والباطل ، وبه وحده يصبح الانسان سيد مصيره ، رغبات الانسان قد تدفعه الى سن القوانين واقامة التقاليد ، ثم قد تعود فتغريه بان يتحلل مما قد سن او اقام ، واما ما بني على العقل فهو ثابت على الدهر لا يزول . ولذلك كان محالا علينا ان نحكي تاريخا للحضارة متسلسل الحلقات ، صاعد الخطوات ، الا اذا تعقبنا ما انتجته العقل ، لان نتاجه - دون اي نتاج آخر - هو الذي يظل يكهول نفسه عصرا بعد عصر ، يصلح من اخطاء نفسه ، ويكشف الجديد ويوسع الرقعة قليلا قليلا ، حتى يبسط سلطانه على الارض والسماء ، واما الفن واما الادب وغيرهما من كائنات العالم الوجداني في الانسان ، فلا يأتي الجديد ليعلو درجة على القديم ، بل ربما حدث ان تفوق القديم على الجديد ، فليس من التناقض ان يكون هومر اعظم من شعراء القرن العشرين جميعا ، او ان يكون فتاوى النهضة الأوروبية ازود فنا من رجال الفن في عصرنا ، فكيف اذن يتسلسل التاريخ في حركة صاعدة اذا لم يكن اللاحق اعلى درجة من السابق ؟ ان هذا التسارع الضروري لا يتحقق الا في ميدان العلوم ، التي هي رمز للعقل ونتاجه وبالتالي يكون الجانب العلمي هو وحده مدار القياس لدرجات التقدم والتخلف بين الافراد او الشعوب .

انني لارجو هنا الا يختلط الامر على احد ، فنحن لا نقول ان اي حضارة يمكنها الاستغناء عن عالم الشعور بكل ما يفرزه لنا من فنون وآداب وغيرهما ، ولكننا نقول - بكل قوة نستطيعها - ان عالم الشعور وما ينتج ضروري لكل حضارة ، لكنه وحده لا يكفي ، والعقل دون سواء هو الجانب الضروري والكافي معا لتعريف الحضارة وقياس درجاتها .

يقول البرت شفاينزر عن الحضارة انها بذل الجهد من اجل التقدم . وكلمة « التقدم » هنا هي التي تهمننا في سياق حديثنا ، لانه اذا كان التقدم الى اعلى والى اهام ، شرطا اساسيا للحضارة ، كان الجانب العقلي وحده من الانسان ، بما ينتج من العلوم ، هو الذي يتقدم ، بمعنى ان تجيء الخطوة التالية من خطوات الطريق تقديما نحو الهدف الاخير ، بالنسبة للخطوة السابقة ، فالفيزياء او الكيمياء او البيولوجيا او علوم النفس والاقتصاد والاجتماع ، او غيرها من فروع العلم ، ليست اليوم كما كانت بالامس ، واختلاف يومها عن امسها هو الاختلاف الذي ينتج منه ان تكون حصيلة الامس افقر من حصيلة اليوم ، واكثر منها تعرضا للخطأ . واما الآداب والفنون فكلمة « التقدم » بالنسبة اليها ليست بذات معنى ، فقد لا يستطيع شاعر من شعرائنا اليوم ان يجاري امرا القيس ، وقد لا يستطيع احد من رواة الحكايات في يومنا ، ان يقترب من الرواة الادبية التي بلغتها الف ليلة وليلة . لا ، ان التقدم لا يكون الا في معرفتنا العلمية ، واما ما هو خاص بالوجدان ، فلا اظن ان الام المصرية النكلى تبكي فقيدها على نحو اكمل من بكاء الامهات بالامس ، ولا ان يفنى عاشق اليوم في عشق حبيبهه باكثر مما فنى قيس في عشق ليلاه .

ومن فكرة التقدم هذه تتبثق لنا فروع ، لا بد لنا ان نعيها حق الوعي حتى لا يفلت منا جوهر الحضارة ولبها ، التقدم الحضاري يقتضي حتما الا نجعل الماضي مقياسا للحاضر ، وكيف نجعله المقياس

اذا كان هذا الحاضر افضل منه بحكم فكرة التقدم نفسها ؟ النظر الى الماضي هو نظر الى الوراء ، على حين ان التقدم يقتضي ان نوجه النظر الى امام ، والانحصار في الماضي هو انحصار في نمط واحد من انماط الحضارة ، مع ان التقدم يحتم علينا الخروج من نمط اضيق نطاقا الى نمط اوسع افقا وارحبا اطارا ، ان فكرة التقدم من حيث هي علامة تميز بها المسيرة الحضارية ، توجب علينا ان نجاوز واقفنا الحدود الى واقع اخر اكبر عظما واعلى ارتفاعا ، على ان نفهم «واقفنا» هذا بانه يشتمل على الماضي والحاضر معا ، فكلاهما واقع تم ، فلا بد ان ننظر النظرة التي نرجو ان يجيء المستقبل اكثر تحضرا - بمعنى اغزر علما - من الحاضر ومن الماضي على السواء .

على ضوء هذا الذي اسلفناه ، نستدير الى عصرنا وحضارته ، انه ليس بدعا يشذ عن القاعدة التي سارت عليها سائر العصور ، فالحضارة فيه ما زالت قائمة على نفس الاساس الذي قامت عليه حضارات السالفين ، والاساس هو العقل . غير ان العقل - كما اسلفنا - يوجه فاعليته الى ميادين تختلف كيفا من عصر الى عصر ، وميسدانه اليوم هو العلوم الطبيعية التي تتمثل في اجهزة ولا تقف عند كونها صياغات رياضية نظرية كما كانت الحال حتى عهد قريب . فلو كان الخليل بن احمد بقله الجبار الذي خلق ترتيبا معجميا من عدم ، واستخلص عروض الشعر استخلاصا بلغ حدا مذهلا من كمال العقل الرياضي ودقته ، وفنن لنحو اللغة بعض قوانينه ، اقول لو كان الخليل هذا ولد في عصرنا ، لجاز ان يكون من اضخم علماء الفيزياء النووية حجما واوسعهم شهرة . فالفكر العقلي عنده ، ويبقي الميدان الذي يوجهه اليه . وكذلك لو كان بلانك اوبور او هيزنبرج رجلا من اهل البصرة في القرن الثامن لخرج للناس ممجعا للغة ، وعروضا للشعر . مدار التقدم الحضاري - اعود فاكرر - هو الفاعلية العقلية دون سواها ، والذي يختلف في مراحل التاريخ هو ميدان النظر ، الذي تحدده ظروف العصر المعين .

ولقد حددت ظروف عصرنا هذا ان يكون الميدان هو الواقع الطبيعي وان يكون الهدف هو ايجاد الجهاز الذي يجسد الفكرة العلمية كائنة ما كانت . الاجهزة هي لغة العلم في عصرنا ، ولا عجب انه عصر الصناعة في ثورتها الثالثة : كانت الثورة الاولى حين حلت الالة محل الابدان ، سواء اكانت ابدان البشر ام ابدان الحيوان ، والثورة الثانية حين اصبحت الالة تسيّر آلة سواها دون تدخل الانسان فيما يسيّر وما يسيّر ، والثورة الثالثة حين اتسع نطاق الالة فلم يعد يقتصر على ما كانت الابدان تفعله ، بل امتد حتى شمل فاعليات العقول . ذلك هو عصر التكنولوجيا كما يسمونه ، لا فرق في هذا المجال بين مجتمع في الشرق او مجتمع في الغرب . فما دام المجتمع متقدما بمقياس العصر ، كان حتما ان يلقي زمامه الى عقله واولا ، وان يوجه فعل العقل نحو العلوم الطبيعية واجهزتها ثانيا . فان قوت عليه فدراته الاقتصادية ان يسهم في هذا الميدان بنصيب ، كان لزاما ان يجعل منهاج تلك العلوم منهاجا له في اي ميدان يتاح له النظر فيه . فهناك ميادين العلوم الاجتماعية : علم النفس وعلم الاقتصاد وعلم الاجتماع ، وهناك مجالات الارتفاع بمستوى العيش : من حيث التغذية والسكن والتعليم والعلاج الطبي ووسائل الراحة وتأمين الافراد ضد كوارث الزمن ، هنالك كل هذه الميادين التي تتفاوت فيها الامم في عصرنا ارتفاعا وانخفاضا مما قد يوحي بان ايا منها يصلح ان يكون اداة لقياس التقدم والتخلف ، الا انها جميعا تلتقي في نقطة واحدة ، هي النظرة العقلية بمنهاج العلم الى كل اوجه الحياة .

ونسأل بعد هذا كله : اين تقف الامة العربية اليوم من المسيرة الحضارية ؟ واجيب بجواب يختلط فيه قليل من الاسى وكثير من الامل ، الاسى للهوة اللاعقلية العميقة العميقة التي لا تزال تنتخب في

نظامها ، والامل في جيل جديد اراه على الطريق الى العقلانية العلمية وضميائها .

قد اكون على غير هدى فيما اقول ، ولكنني - على الاقل - اصدق القول مع نفسي ، حين اقرر ما اراه امامي واضحا ، وهو : اما ان نعيش عصرنا بكل ما يقتضيه من اخلاق ، واما ان نكون قادرين على تحريره ، بحيث نعبد صيافته على مثالنا ، اما ان نتمرد عليه ، ثم نعجز عن تحويل اي شيء فيه ، فذلك حكم على انفسنا بموت حضاري ، لا يعلم الا اعلام القيوب متى تكون قيامته .

قل ما شئت عن عصرنا ، ولكنك مضطر الى ان تصفه بصفات ثلاث : فهو عصر علمي ، وهو عصر تقني ، وهو عصر مدار الاخلاق فيه على المنفعة . ولقد جمع مؤلف انجليزي معاصر هذه الصفات الثلاث في صيغة مركزة ، اذ قال انه عصر « تقني بنتامي » . اما التقنية فهي تتضمن ذلك الضرب من العلوم الذي يستهدف اختراع الاجهزة التي تجسد قوانينها ، ولا يترك هذه القوانين في صورتها المجردة واما انه عصر بنتامي ، فالاشارة هنا الى بنتام فيلسوف المذهب المنفي اiban القرن الماضي .

معنى ذلك ان جواز المرور الذي يبيع لنا الدخول في عصرنا ، هو ان نظور من قيمنا السائدة لكي تصبح قيما قائمة على علمنة ، وعلى تقنية ، وعلى منفعية في اسس التعامل السياسي والاقتصادي على اقل تقدير ، فاذا لم تعجبنا هذه الصفات لكونها غريبة على ثقافتنا الموروثة ، كنان علينا احد امرين : اما ان نلوي عنق العصر حتى يرى الدنيا باعيننا ، واما ان نسحب من العصر الى حيث شئنا ان يكون الاختفاء في ستر الظلام ، لكن المفارقة العجيبة ، هي اننا لا نتخلق لدينا المعاصرة فكرا يثنيها عن طريقها . وفي الوقت نفسه ترانا نف من ثقافة العصر موقفا يقبل اسماءها المجردة ويرفض مضموناتنا ، بمعنى اننا على استعداد لقبول الاتجاه العلمي والتقني بل والاتجاه المنفي في التعامل ، على شرط ان يقف هذا القول عند حدود هذه الاسماء ، واما ما يندرج تحت هذه الاسماء من مضمونات فليس لدينا المعدات التي اعدت لهضمها ، مما احدث فينا ضربة عجيبة من الازدواجية الحضارية: فعلى سطح الامور الظاهرة ، نبدو وكأننا نعيش العصر في تصوراتنا ، فاذا نلطنا الى ما تحت السطح وجدنا انفسنا ما نزال نلوي في صدورنا قيم حضارة ذهبت مع تيار الزمن .

سل من شئت : هل تحب ان تتابع العصر في عقلانيته وتقنياته ؟ يجبك في استعلاء بان العقلانية وما يترتب عليها ، هي جزء من ميراثنا الاصيل . لكن قل له انها في عصرنا تستتبع عدة امور : منها الاتقي بزمامك الى العاطفة ايا كان نوعها ، ومنها ان يتولى العمل من يحسن اداءه ، لا من ينتمي الى اصحاب الجاه بأواصر القربى ، ومنها ان يكون الارتكاز كله على الواقع المادي الصارم ، ومنها ان نصطنع في حياتنا نظرة علمانية تجعل محورنا هنا على هذه الارض قبل ان يكون هناك في عالم آخر ... قل له هذا ، يأخذه الفرع ، لانه عندما اعلن انه من انصار النظرة العقلية ، لم يكن قد تخيل لنفسه انها نظرة تلد كل هذا النسل العجيب ، فهو عقلاني بالاسم ، لا بالضمون والنتائج . انه يقبل من العصر تقنياته ، لانه يريد - كسائر عباد الله - ان ينعم بالسيارة والطيارة واجهزة التدفئة والتبريد ، لكنه اذا علم بان ادخال هذه الآلات في حياتنا ، معناه ادخال عادات جديدة في تلك الحياة ، ومعناه احلال قيم جديدة محل قيم قديمة ، اخذ الهلع ، لانه في عمق نفسه لا يريد ان يقيم الموروثة بديلا .

وهكذا نقع في ازمة حضارية من طراز نادر ، لاننا في الحقيقة بمثابة من يحيا ثقافتين متعارضتين في وقت واحد : احدهما خارج النفس ، والاخرى مدسوسة في حناياها لا تريم ، فترى حضارة العصر في البيوت والشوارع والاسواق ، بينما تحس حضارة الماضي رابضة خلف الصلوع .

ونعود فنسأل : اين تقف الامة العربية اليوم ، من حيث التقدم او التخلف على طريق الحضارة ؟ ان معايير القياس كثيرة ، اشرا الى بعضها ، فهناك المعيار الاقتصادي الذي يقيس التقدم بمتوسط الدخل ، وهناك المعيار الثقافي الذي يقيسه بدرجة انتشار التعليم ، وهناك المعيار الذي هو اشيعها قبولاً ، وهو معيار يقيس تقدم الامة او تخلفها بدرجة العلمنة والتصنيع ، اي بدرجة تحولها الى الحياة الصناعية المستندة الى الاجهزة الآلية . وايا ما كان المعيار الذي تختاره ، فالشرط الضروري دائما هو ان تتغير طرائق العيش والتفكير بحيث تسير روح التقدم المصري .

لكن هذا التقدم لا يعني شيئا الا اذا عرفنا الى اي هدف نتقدم ، حتى يمكن قياس المسافة الفاصلة بين موقفنا الراهن وبين ذلك الهدف الذي نتقدم نحوه . بعبارة اخرى : ما هو النموذج الكامل الذي نضعه نصب اعيننا اثناء سيرنا ، لتكون على يقين بحقيقة موقفنا : هل هو اقتراب او ابتعاد عن ذلك النموذج ؟ وانه لعزير على نفسي ان اقولها صريحة ، وانه كذلك لعزير على نفوسكم ان تسمعوها ، لكنه حق لا منجاة لنا عن مواجهته ، وهو ان نموذج القياس انما هو الحياة المصرية كما تعاش اليوم في بعض اجزاء اوربا وامريكا ، فقد شاء الله ان يكون هناك اليوم ينبوع الحضارة ، كما كان ينبوعها في ارضنا ذات يوم .

وقد نوجز اهم معالم تلك الحياة الاوروبية الامريكية التي هي حضارة العصر في بضع نقاط ، تساعدنا على قياس موقفنا بالنسبة الى الهدف : فمن تلك المعالم الميزة سرعة التغير ، وسرعة قبول الجديد ، فحياة الناس هناك توشك ان تتغير يوما بعد يوم ، وعليهم ان يلاحقوها ، والملاحقة معناها الا يبهرنا ما قد فات ومات ، حتى لا نقف طويلا عند اطلال ، بل نوجه البصر دائما نحو غد ، فالقوم هناك يؤمنون ايمانا لا تحده حدود بالعلم وقدرته على النمو المطرد ، وبانه كلما اطرد نموه قلب حياة الانسان كما وكيفا .

فاذا اردنا قياس التقدم او التخلف ، فما علينا الا ان نقيس المسافة بين حياة الفرد العادي في مجتمعاتنا بحياة الفرد العادي في مجتمعاتهم : في حصيلة العلوم ، في دقة التخطيط ، في غزارة الانتاج ، في مدى الحرية السياسية والاجتماعية ، وغير ذلك مما يتفرع عن اصل واحد ، يتلخص في قولنا عن حضارة العصر انها : علمية تقنية منفعية .

انني لعلى وعي بوجه الاعتراض هنا ، وهو : لماذا نفني ثقافتنا في ثقافة غيرنا ، بحيث نجعل منهم نموذجا لنا نحتديه ؟ واظن ان خير جواب يزيل عن انفسنا القلق ، هو ان ينحصر تفردنا الثقافي في تلك الجوانب التي تميز الشعوب ، والتي هي في الوقت نفسه ليست مقياس التقدم الحضاري كما حددها ، واعني بها جوانب العقيدة والفن وبعض تقاليد الحياة التي لا تتنافى مع الحركة العلمية بكل فروعها ، وبهذا نتيج لانفسنا ان نتحضر بحضارة العصر في اخص خصائصها ، كما نتيج لها في الوقت نفسه ان تحتفظ بما يميزها عما سواها ، وبهذا تتركها تسير العصر في نظراته العلمية الصارمة ، وتطوي على ذاتها في ميادين الوجدان وطرائق التعبير عنه في العقائد والادب والفن .

ان الحديث عن الحضارة وقضية التقدم والتخلف للامة العربية ، ما كان ليستثير نشاطنا الفكري ، لو ان بنا مواتا نزل بنا الى حفرة الحضيض ، وكذلك ما كان ليستثير نشاطنا لو اننا قد علونا في حضارة العصر الى ذروة الوجود ، ففي الحالة الاولى ينعدم الوعي ، فلا فكر ولا نشاط ، وفي الحالة الثانية تتحقق الطمأنينة والرضى ، فلا قلق ولا تساؤل ، لكننا من مدارج الصعود في منزلة بين المنزلتين ، ولذلك كان لا بد لنا من مثل هذا النشاط الفكري ، نتحسس به الطريق ، حتى لا نضل عن العادة المستقيمة لنبلغ ما نريد ونبتغي .